عنوان المداخلة: البعد الحضاري للمقاصد القرآنية في بناء المجتمع الإنساني المعاصر والتأصيل لنظرية التعايش المشترك. عرض وتحليل.

المحور الثالث: المحور الاستشرافي

د. زيان سعيدي

الرتبة العلمية: أستاذ محاضر أ

المؤسسة الأصلية: جامعة الوادي

مقدمة:

إن التصور الصحيح لمقاصد القرآن الكريم هو المدخل السليم للتعريف بدين الإسلام تعريفا صحيحا بعيدا عن كل تشويه أو مغالاة فيه.

وبما أن القرآن الكريم يعتبر المصدر التشريعي الأول المعبر عن حقائق الإسلام ومعانيه والمتضمن لأحكامه وتشريعاته، فإن مقاصده وحكمه وغاياته وأسراره لسان صادق وشاهد ناطق عن مراعاته لمصالح الخلق وإرادته الخير والنفع لعموم البشرية والإنسانية. وقد أوضح الإمام الشاطبي أصالة القرآن الكريم في الكشف عن مقاصد هذه الشريعة بقوله:" إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك؛ لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها، أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي؛ نظرا وعملا، لا اقتصارا على أحدهما؛ فيوشك أن يفوز بالبغية، وأن يظفر بالطلبة..."[1]

ومن جملة المقاصد التي تضمنها القرآن الكريم، بناء المشتركات الإنسانية، وتعزيز روابط التعاون الإنساني وتقوية صلات العيش المشترك، وتعزيز بناء القيم الإنسانية التي يمكن أن يلتقي عليها جميع شعوب الأرض وأممها على اختلاف أعراقهم، وألوانهم، ومذاهبهم، وانتماءاتهم الفكرية والدينية.

والقرآن على هذا الأساس، يعتبر الرافد الأول والأصيل من روافد الحضارة الإسلامية التي أدخلت العالم الذي كان يعيش في وحشية إلى عالم الإنسانية. يقول جوستاف لوبان في كتابة حضارة العرب:" إن حضار العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية إلى عالم الإنسانية.."

---

[1] الشاطبي. الموافقات144/4

وتلتقي نظرة القرآن القاصدة إلى إيجاد الروابط الإنسانية العابرة لمختلف الخصوصيات (دينية، عرقية، ثقافية، مذهبية،....) مع المعيار السليم الذي ينبغي أن تقاس به مستويات التحضر لأي أمة من الأمم، وهو شيوع النظرة الإنسانية في نظمها الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية السائدة.

ولعل أبسط الشواهد التي تعبر عن هذا التلاقي بين القرآن الكريم ومفهوم الحضارة الصحيح، هو آية التكريم الإنساني التي تعتبر أحد مظاهر العناية القرآنية بالإنسان: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ [الإسراء: 70] وكل تعارف، أو تقارب أو تلاق إنساني، لا يتم في ضوء التكريم، وتحت ظل الاحترام المتبادل كما قال أبو زهرة رحمه الله تعالى، فلا مستقبل له ولا أمل في نجاحه.

وقد تضمن القرآن الكريم القواعد الكلية والأحكام العامة المختلفة التي تنظم مختلف العلاقات المعبرة عن بعده الحضاري، علاقة الإنسان بربه تعالى، علاقة الإنسان بمجتمعه وأخيه الإنسان، وأخيرا علاقة الإنسان بنفسه. وكلها تنتهي إلى خدمة الجماعة الإنسانية وتعزيز روابط العيش المشترك والتعاون الإنساني.

والسؤال الذي يُطرح معبرا عن **إشكالية** هذه الورقة البحثية:

ما هي المقاصد القرآنية التي حواها القرآن والتي يمكن من خلالها التأسيس لمساحات مشتركة بين سائر الشعوب وتعزيز الروابط الإنسانية؟

ويتفرع عن هذا السؤال جملة من الأسئلة: كيف أسهمت المقاصد القرآنية في بناء الحضارة الإسلامية التي قامت على رعاية مبدأ العيش المشترك؟ وكيف يمكن استثمار ذلك في بناء المجتمع الإنساني؟

وما هي العلاقة بين نظرية المشترك الإنساني وبين مقاصد الشريعة عموما والمقاصد القرآنية بشكل خاص؟

***أهمية البحث:** -أهمية البعد المقاصدي في عرض النظرة الإسلامية لبناء المشتك الإنساني.

-ارتباطه بالتعريف الصحيح للإسلام من خلال الوقوف على مقاصده وكشف حقائقه.

-التأسيس لنظرية العيش المشترك، والتأصيل لبناء المجتمع الإنساني الواحد.

-معرفة موقع البعد الإنساني المشترك ضمن الأحكام الشرعية.

***أهداف البحث:** -إبراز الصورة الحقيقية للإسلام المعبرة عن مقاصده وغاياته، ومن جملتها مراعاة البعد الإنساني في سائر العلاقات وتعزيز روابط العيش المشترك.

-بيان وشاجة الصلة بين المفهوم السليم للحضارة والمنظومة الحضارية التي اشتمل عليها القرآن من خلال مقاصده.

-التأكيد عل ظلامة الصورة المشوهة التي يحاول الإعلام الغربي إلصاقها بالإسلام وإشاعة ما يسمى بالإسلاموفيبيا.

خطة البحث: انتظمت الخطة المحاور التالية:

المحور الأول: أصول المشترك الإنساني في نصوص الوحي وأبعاده المقاصدية

ونتناول من خلاله: طبيعة التشريع الإسلامي وأبعاده الحضارية في عنصرين:

-خطاب الإنسانية في القرآن وأثره في تعزيز التعاون الإنساني.

-طبيعة العلاقة بين المجتمعات الإنسانية حاضرها وآفاقها.

المحور الثاني: عرض وتحليل للمقاصد القرآنية الموظفة في بناء المجتمع الإنساني المعاصر.

ونتناول من خلاله المقاصد القرآنية التالية:

-مقصد الاستخلاف وعمارة الأرض.

-مقصد العدل والمساواة.

-مقصد جلب المصالح ودرء المفاسد.

-مقصد السلام والتسامح العالمي.

-مقصد بناء القيم والتكريم الإنساني.

-مقصد التعارف والتعاون الإنساني.

الخاتمة لأبرز النتائج والتوصيات.

المحور الأول: أصول المشترك الإنساني في نصوص الوحي وأبعاده المقاصدية

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأساس في تأصيل المقاصد الإنسانية المشتركة والتي تؤسس لمفهوم المشترك الإنساني. وقد أرشد القرآن الكريم إلى عدد من القيم الإنسانية التي تشكل قاسما مشتركا تلتقي في جوهره كل الأديان والحضارات المختلفة وشتى المذاهب الفكرية.

وإذا كانت الحضارة تعني ضمن ما تعنيه قدرة الإنسان على إقامة علاقات سوية في ميادينها الثلاثة، العلاقة مع الرب تعالى، العلاقة مع الآخر والكون المحيط ثم العلاقة مع النفس، فإن هذا المفهوم لا يجد له تحققا إلا في رسالة الإسلام ودستورها القرآن، وهذا ما يمكن استجلاؤه في طبيعة التشريع وخصائص هذه الرسالة وخطاب الإنسانية الركائزي في القرآن والتأسيس للعلاقات الإنسانية الجامعة مع اختلاف الأديان والملل والنحل.

وعلى هذه المطالب الثلاثة المستجلاة ينعقد الحديث في هذا المحور:

المطلب الأول: طبيعة التشريع الإسلامي وأبعاده الحضارية

لا يبتعد البحث في المشتركات الإنسانية عن دائرة خصائص التشريع ومميزات الرسالة الإسلامية. لأن رسالة الإسلام رسالة عالمية، توجّه الخطاب بها إلى البشرية جمعاء. وليس ثمة بعد نبوة محمد عليه السلام ورسالته إلا أمة واحدة هي الأمة المحمدية وإن كان استقراء النصوص الشرعية خاصة الحديثية منها يفرق بين قسمين من أقسام الأمة المحمدية وهما أمة الدعوة وأمة الإجابة. ولهذا اختص كل قسم منها في القرآن والسنة بخطاب له مميزات وخصوصية عن الآخر. فخطاب النذارة اختصت به أمة الدعوة وخطاب التذكير اختصت به أمة الإجابة. فنجد في القرآن الخطاب بالتكليف بالإنذار ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ [المدثر: 2] ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ [الشورى: 7] وهذا خطاب لعموم الأمة المحمدية حتى يستجيب بالإيمان بالله والاتباع لرسوله عليه السلام. وهنا يأتي واجب التذكير والتعريف بالتكاليف ومقتضيات الإيمان والتوحيد ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ۝٣٧ ﴾ [ق: 37] ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥ ﴾ [الذاريات: 55] ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ ﴾ [الأعلى: 10]"

وفي حديث معاذ ترتيب لمراحل الخطاب الإنذاري أولا، ثم التذكيري ثانيا بعد الاستجابة:" إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس "[2] فقوله فليكن أول ما تدعوهم إليه" دعوة ونذارة لإقامة التوحيد وقوله:" فإن هم أطاعوك" مرحلة الاستجابة وهي مرحلة التذكير بالواجبات ومقتضيات التوحيد والإيمان.

---

[2] البخاري. كتاب الزكاة. باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة 529/2برقم 1389

فعنوان المحمدية الذي وصفت به هذه الأمة باعتبار عموم دعوة النبي وبعثته للناس كافة كما صرح بذلك القرآن والسنة:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾ [سبأ: 28]" وفي صحيح مسلم:" والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ، ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار "[3] حيث جعل النبي من هذه الآية: اليهود والنصارى.

إن لغة الخطاب العالمية التي تميز بها القرآن الكريم يتردد صداها في مجالات ومواطن متعددة وما ذلك في الحقيقة إلا تعبير عن نظرة جديدة قدمها القران الكريم يؤسس من خلالها لتفاهم المجتمعات الإنسانية وتقاربها وتعايشها وتصالحها: وأول موطن يصادفنا في هذا المشروع الحضاري الذي أسس له القران آية التكريم الإنساني. ولقد كرمنا" والكرم أو التكريم إنما يوصف به الشيء لشرفه في ذاته بكمال وصف أو حسن مقال أو صدور نفع منه لغيره. ولهذا كان وصف الكرم صفة من صفات الله تعالى" ما غرك بربك الكريم" ووصفا لجبريل "إنه لقول رسول كريم."[4]

وهذه الأحكام التي اشتملت عليها هذه الآية هي أحكام للنوع الإنساني من حيث هو كما قال ابن عاشور في تفسيره. وقد جمعت هذه الآية خمس منن أولها التكريم وتسخير المراكب في البر وتسخيرها في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كير من المخلوقات.[5]

والذي نتوقف عنده من هذه المعاني باعتباره أصلا من الأصول الإنسانية المشتركة، هو التكريم. والتكريم جعل الشيء كريما أي نفيسا غير مبذول ولا ذليل[6]

والناس بمقتضى هذا الوصف–التكريم–كلّ واحد لا يتجزأ، والمأزق الذي تعيشه الإنسانية اليوم هو مأزق التفرقة بين البشر، وهو مأزق من شأنه أن يخلق واقعا عنصريا وحياة طبقية تغيب فيها كل معاني الإنسانية لا سبيل بعدها إلى كرامة وحرمة. لهذا كانت هذه الآية القرآنية الكريمة، الأساس الذي يحفظ للإنسان عظمته ومكانته وحجمه. وهو أساس مهم لتشييد بناء إنسانية عالمية أو حضارة إنسانية، قاعدتها الأخلاقية كرامة الإنسان وحريته. ومستويات التحضر أو الارتقاء الإنساني للأمم، إنما تقاس بموقع الإنسان فيها وطبيعة التعامل معه. يقول الأستاذ شوقي أبو خليل:" إن المعيار السليم الذي يجب أن تقاس به مستويات التحضر لأمة ما هو نظرتها إلى الإنسان وموقعه ومكانته في إطار هذه الحضارة وفي إطار الفلسفة السياسية والاجتماعية السائدة."[7]

---

[3] صحيح مسلم1/93برقم303

[4] ابن باديس. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. ص128

[5] ابن عاشور. التحرير ولتنوير164/15

[6] ابن عاشور. التحرير ولتنوير165/15

[7] شوقي خليل. الحضارة العربية الإسلامية. ص10

إن الحفاظ على كرامة الإنسان ورعاية حقوقه وكيانه، مقصد تشريعي اجتمعت على تحقيقه الشرائع السماوية كلها، فكانت المهمة الأولى لسيدنا موسى عليه السلام وقبل أن تنزل التوراة، هي أن يخرج بني إسرائيل من العبودية والاستضعاف إلى الحرية والكرامة، وهي نفس المهمة التي جاهد رسول الله ﷺ لتحقيقها وتنفيذها في ظل مجتمع جاهلي شهد أعلى مراتب الإسفاف بالبشر وإهدار كرامتهم. وهو الواقع الذي عبّر عنه بصدق سيدنا جعفر ﷺبقوله:" كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف...."[8] وقول ربعي بن عامرﷺ وهو يجلّي لرستم الغاية من تشريع الجهاد:" وقول ربعي بن عامر وهو يجلّي لرستم الغاية من تشريع الجهاد:" الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.."[9]

إن التشريعات الإلهية باعتبارها جزءا من عقيدة المسلم وهويته الدينية، جعلت المحافظة على كرامة الإنسان جزءا لا يتجزأ من الإيمان بهذه الشريعة والتصديق بمبادئها. فأساس المفاضلة والثواب والجزاء، هو مقدار ما يحسنه المرء، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى كما جاء في حديثه عليه السلام.[10]

لما سرقت المرأة المخزومية وأراد قومها أن يشفعوا لها عند رسول الله ﷺ غضب وقال قولته العظيمة التي كرس فيها قولته العظيمة –من على منبره– قيمة العدل والمساواة بين الناس جميعا: « إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها."[11]

ولما مرّ على النبي ﷺ بجنازة يهودي وقام لها، قيل له: إنها جنازة يهودي. قال: أو ليست نفسا. »[12] وهو تأكيد للبعد الآدمي والمعنى الإنساني في أفعاله وأقواله التي هي من مصادر الشريعة.

وأخرج عبد الرزاق في مصنفه بنده إلى الشعبي قال: «ماتت أم الحارث بن أبي ربيعة، وكانت نصرانية، فشيعها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.»[13]

---

[8] مقبل بن هادي الوادعي. الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين113/1

[9] ابن كثير. البداية والنهاية46/7

[10] راغب السرجاني. المشترك الإنساني. ص397

[11] سنن الترمذي89/3 برقم 1430 قال الترمذي: حسن صحيح.

[12] متفق عليه. انظر. اللؤلؤ والمرجان195/1

[13] المصنف36/6

إن هذه المعاني الإنسانية التي صاحبت التشريع في هذه المواقف وفي غيرها، لهو خير دليل على ترسيخ المبادئ الإنسانية المشتركة في الرسالة الإسلامية وثباتها ثبات الجبال، ولم يقتصر وجودها على الحضور الأدبي المجرد، بل استحالت هذه المعاني والقيم الإنسانية النبيلة واقعا شاهدا عليها. فبلال الذي كان بالأمس القريب عبدا لا يملك أمر نفسه، يعتلي بعد الفتح الكعبة المشرفة ليكون أول بشر يصعد على ظهر البيت معلنا كلمة التوحيد سابقا كل شريف من شرفاء قريش وسادات العرب. والتسامح الذي رفع الإسلام رايته ليس مجرد شعار تزينت بالدعوة إليه آيات القرآن وأحاديث السنة. فسمى المخالفين من اليهود والنصارى أهل كتاب، وأباح أكل ذبائحهم وتزوج نسائهم "﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ [المائدة: 5] والمعنى الذي يحمله الزواج معنى عميق في تأصيل روابط التقارب والتواصل، فالسكن والمودة والرحمة كلها من آثار الزواج: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾ [الروم: 21] فمعنى الزواج من كتابية أن تكون هي سكن نفسه وموضع مودته وسره، وشريكة حياته، وربة بيته وأم أولاده، وأصهاره أجداد أولاده وأخوالهم وخالاتهم، ولهم يثبت حق ذوي القربى والأرحام من الصلة والإحسان.[14]

يقول السيد رشيد رضا:" زوجة الرجل شقيقة روحه بل مقومة ماهيته الإنسانية ومتممتها."[15]

لقد استطاع الإسلام من خلال نصوصه وتشريعاته أن يوجد توليفة متعددة الأعراق والأجناس، ومتنوعة الخبرات والثقافات والمواهب، تشكلت منها في نظم متناسق وعقد فريد من نوعه حضارة الإسلام التي استثمرت هذا النوع في تشييد دعائم حضارة إنسانية عالمية لم يشهد لها التاريخ نظيرا ولا مثيلا. ولا عجب فرؤيتها إنسانية، ونزعتها عالمية ودعامتها أخلاقية ونظرتها شمولية، وغايتها ربانية تسعى لخير البرية وسعادتها. وهذا التوصيف للحضارة الإسلامية هو الذي أجمع عليه العقلاء حتى من غير المسلمين، ومن شهاداتهم في هذا المضمار، ما قاله جورج سارتون:" المسلمون عباقرة الشرق لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم تولوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثرها أصالة وعمقا مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشري."[16]

يقول البروفيسور مونتجو مري:" إننا معشر الأوربيين نأبى في عناد أن نقر بفضل لإسلام الحضاري علينا، ونميل أحيانا إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحيانا تجاهلا تاما، والواجب علينا أن نعترف اعترافا كاملا بهذا الفضل. أما إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا على كبرياء."[17]

---

[14] القرضاوي. كيف نتعامل ع القرآن. ص124

[15] محمد رشيد رضا. تفسير المنار 28/5

[16] حسن شمسي باشا. هكذا كانوا يوم كنا. ص08

[17] المرجع السابق. ص11

ويعدد الأستاذ ج دوفال محاسن الإسلام وأفضاله المتعددة في جوانب شتى اعتقادية، اجتماعية وثقافية وسياسية، وهي مقومات تجعل منه أساسا يبنى عليه صرح الإنسانية فيقول:" من فضل الإسلام زوال الأصنام والأنصاب من الدنيا، وتحريم القرابين البشرية، وأكل لحوم الإنسان، وحفظ حقوق المرأة، وتقييد مبدأ تعدد الزوجات وتنظيمه مع عدم الوصول إلى الحق المطلق، وتوطيد أواصر الأسرة وجعل الرقيق عضوًا فيها، وفتح أبواب كثيرة سهلة لتحريره، وتهذيب الطبائع العامة ورفع مستواها بالصلاة والزكاة، وإيواء الغرباء، وتثقيف المشاعر بالعدل والإحسان، وتعليم أولياء الأمور أن عليهم من الواجبات ما على الرعية، وإقامة المجتمع على أسسٍ منظمة، وإذا حدث أن وُجِد جَورٌ في الغالب، كما في أي مكان آخر، وجد في العدل الإلهي ما يخفف وطأته، وذلك أن في رجاء الحياة الآخرة، حيث السعادة وحسن الثواب، سندًا لضحايا الدهر أو الظلم، وتلك هي بعض المحاسن التي تدل في كل مكان على انتشار الإسلام بين المجتمعات غير المتمدنة."[18]

ونختم بما قاله غوستاف لوبان في كتابه حضارة العرب:" إن حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية في عالم الإنسانية." [19]

وخلاصة لهذا المطلب نقول: إن الإسلام دين عالمي النزعة، غايته المحافظة على المكتسبات والمنجزات الإنسانية وتعزيز مجال التعاون الإنساني وفق أسس المشترك الإنساني وفي مقدمتها الكرامة الإنسانية.

المطلب الثاني: خطاب الإنسانية في القرآن وأثره في تعزيز التعاون الإنساني

إن الاعتبار الإنساني يكاد يكون سمة غالبة في نداءات القرآن وخطاباته، وسائر مضامين الخطاب في القرآن الكريم وموضوعاته في العقيدة والأخلاق والأحكام والمواعظ وغيرها لا يتراءى لك منها ببادهة النظر إلا الميزة الإنسانية، وكأن هذه الخطابات والنداءات القرآنية أثواب فصلت على قدر الحقيقة الإنسانية لا تسع غيرها من المعاني والمظاهر الأخرى البيئية أو القومية أو العرقية أو القبلية.

إن دلالة العدّ والإحصاء على حضور الاعتبار الإنساني في الخطاب القرآني لا يمكن تجاهلها بحال، وهي شاهد إضافي على النزعة الإنسانية الغالبة في القرآن. فلفظ الناس: ذكر في القرآن في نحو 182 مرة، ولفظ الإنسان ذكر في نحو: 58 موضعا، ولفظ الإنس ذكر في نحو 14 موضعا من القرآن. وهذا العدد الذي ليس بالقليل للألفاظ الدالة على الإنسانية، تجعلنا نقرر بكل صدق وأمانة، أن القرآن الكريم هو كتاب الإنسانية وكتاب الحياة كلها، وهداياته توجّه بها إلى الناس جميعا وذكّر بها العالمين: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: 185] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يوسف: 104]

---

[18] غوستاف لوبان. حضارة العرب. ص641

[19] المرجع السابق. ص...

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: 158] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: 28]﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: 1]

إن وصف الأمة الذي خاطب به القرآن المسلمين والذي يجعل منها أمة متميزة عن غيرها في مناهجها وعقائدها ومبادئها وقيمها وأهدافها، لا يعني أن تعيش هذه الأمة لنفسها، منعزلة عن غيرها، منغلقة على ذاتها، بل هي أمة متميزة في الهدف والمنهج والعقيدة والقيم، ولكنها منفتحة على الآخرين، ملتمسة لهم النفع، متحرية لهم الخير والصلاح. وفي القرآن الكريم لما خاطب الله تعالى هذه الأمة مثنيا عليها بالخيرية، جعل مناط هذه الخيرية مقدار ما تقدمه للبشرية من خير ونفع. "﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 110] وتأمل في قوله تعالى:" أخرجت للناس" فهي كما قال القرضاوي لم تخرج لنفسها، بل أخرجت للناس. فالدعوة التي كلفت بها هذه الأمة، هي الدعوة إلى خير الإنسانية كما قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: 104]

إن القرآن الكريم يجعل من تذكير الناس بأنهم من نفس واحدة باعتبار مناط الوحدة، وداعية التعاطف والألفة بين البشر. ولهذا صلحت لأن تكون مقدمة للتكليف بالأحكام وحفظ الحقوق. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: 1]. والإنسان الذي يخاطبه القرآن، هو الإنسان المكلف الذي يسعده التكليف ويشقيه الانعتاق منه، وهي نظرة تميز فلسفة الإنسان في منظور القرآن عن سائر الفلسفات الأخرى أنه مجرد كائن ناطق فحسب.

ومن الذوق في الخطاب القرآني–تأكيدا لهذه الإنسانية– أن لفظ الإنسان في القرآن في مواضع كثيرة منه، يراد به الكافر.[20] كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الإنفطار: 6]. الإنسان اسم جنس يشمل المؤمن والكافر، وما هذا العدول عن وصفه بالكفر والجحود إلا مبالغة في تأكيد المعنى الإنساني المشترك القائم على أصل التكريم والتفضيل. كأن فيه لفتا للنظر، أن كفر هذا الإنسان وجحوده برسالة رب العالمين لا يرفع عنه صفة الإنسانية التي هي مناط التكريم ولا يحاد في التعامل معه عن هذه النزعة الإنسانية التي قوي سلطانها في جوانب التشريع المختلفة.

ففي مجال العقيدة: تقرير للوحدانية والربوبية لله تعالى بمقتضى الخلق والرزق والتدبير وهي قواسم إنسانية مشتركة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: 21] ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ ﴾ [الناس: 1] ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم: 52] ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الجاثية: 36].

---

[20] ابن عاشور. التحرير والتنوير130/22

والقرآن الكريم بتقريره وحدانية الله تعالى وعبودية الإنسان والخلق أجمعين له سبحانه، فإنه بذلك يحرر الإنسان من كل أشكال العبودية لغير الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 64] ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: 114].[21]

وفي مجال التشريع، المنطلق القرآني في تقرير الأحكام والتشريعات هو الرحم الإنسانية العامة، فعلى ضوئها تفهم حقيقة القرارات التشريعية. ففي سورة الإسراء مثلا تبتدئ السورة بوضع المنطلقات الأساسية والمرتكزات التي تبنى عليها الأحكام والتشريعات التي تصب في مصلحة الأسرة الإنسانية كلها كما ذكر البوطي رحمه الله تعالى.[22]

وقد قرر محمد رشيد رضا أن هذه النفس الواحدة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء: 1] هي الإنسانية التي كانوا بها ناسا، وهي الحقيقة الجامعة التي يتفق حولها الذين يدعون إلى خير الناس وبرهم ودفع الأذى عنهم، فيعدّون الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر، وهذا المعنى هو المراد من تذكير الناس بأنهم من نفس واحدة، لأنه مقدمة للكلام في حقوق الأيتام والأرحام. [23]

فلا فرق على هذا التقرير في رعاية حقوق الأيتام أو الأرحام بين موحد وجاحد، بين مسلم وكافر. وهذا ما أكدته قواطع القرآن والسنة:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: 15] ولما قدمت أسماء إلى النبي عليه السلام تسأله في شأن صلتها لأمها: قال: نعم صلي أمك". وفي ثنايا هذه السورة–النساء– حديث عن ميزان العدالة في الحكم بين الناس الذي لا يعرف أساسا إلا أساس الإنسانية: إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: 105] ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: 58] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: 8]

ولم تقتصر مراعاة القرآن للنزعة الإنسانية من حيث الموضوع والمضمون، بل هذه النزعة في الأسلوب فيما يعبر عنه من المواضيع والمعاني، فلا أثر في خطاب القرآن لخصوصيات البيئة أو العرق أو الإقليم، وحتى تلك المناسبات والوقائع التي كانت سببا في نزول الآيات لم تتعرض للأسماء ولا للخصوصيات الشخصية، بل جاءت كلها بصيغة العموم وبأسلوب موضوعي دون ذكر الأسماء.[24]

---

[21] كيف نتعامل مع القرآن. مرجع سابق. ص117

[22] البوطي. من روائع القرآن. ص218

[23] تفسير المنار268/4

[24] البوطي. مرجع سابق. ص222

المطلب الثالث: طبيعة العلاقة بين المجتمعات الإنسانية حاضرها وآفاقها

إن وحدة الأصل البشري ورجوع الناس جميعا في منشئهم وخلقتهم إلى أب واحد وأم واحدة، لا ينفي وجود الاختلاف والتنوع بينهم في أشياء كثيرة. وقد أشار القرآن إلى المقصد من الجمع بين هذا الأصل المشترك وبين التنوع والاختلاف بين الشعوب في آية واحدة، وهي قوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: 13].

فالهدف الأسمى إذن، هو وضع أسس وأرضية تتعزز فيها فرص التعارف والتعاون بين أفراد النوع الإنساني. والآية تشير إلى أن الاختلاف بين الشعوب سنة كونية وطبيعة اقتضتها الإرادة الإلهية: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ ﴾ [هود: 118] وهو-الاختلاف- لا يعني بحال من منظور القرآن إقصاء الآخر أو إلغاؤه أو التصادم معه. بل لا يعني أن ننظر إلى الاختلاف أو نتعامل معه كأداة للتفريق أو سبب يبيح القهر والاستغلال والعدوان. وقد عرفت المجتمعات في تاريخها القريب والبعيد أبشع مظاهر القهر والاستغلال، بل والاستعباد والإفناء، لتحقيق المصالح الذاتية، لأن التصادم والتصارع ليس من ورائه إلا هذه الغاية، تحقيق المصلحة الذاتية، أما المصلحة المشتركة، فلا سبيل إلى تحقيقها إلا عن طريق التعارف الذي أرشد إليه الإسلام في هذه الآية.

إن القرآن الكريم قدّم نظرة جديدة تؤسس لتلاقي المجتمعات وتعارفها وتصالحها على ما يحفظ المصالح المشتركة ويحققها. وكانت دعوته أن يستثمر هذا الاختلاف في تحقيق التقارب والتعايش السلمي والمشترك. فالاختلاف ينبغي أن ينظر إليه على أنه قيمة من أهم القيم التي يمكن أن تكون مفتاحا لحل كل مشاكل العالم، وأساسا لتكوين المركب الإنساني.[25]

فهما إذن منهجان لا ثالث لهما، إما منهج التعارف والتعاون الإنساني والتعايش السلمي المشترك لتحقيق المصالح المشتركة، وإما منهج التصادم والإقصاء لتحقيق المصالح الذاتية. وليس الاختلاف في ترجيح أحد المنهجين على الآخر، كما لا اختلاف في ترجيح الخير على الشر والحق على الباطل، بل الاختلاف في تحديد وسيلة تحقيق التعارف والتعاون، ونبذ الصدام وتلافي العداء.

إن الإسلام يقيم قواعد إصلاحه الاجتماعي الإنساني للوصول إلى المجتمع الإنساني الذي تلتقي فيه المصالح المشتركة على تثبيت دعائم الوحدة الإنسانية، وحدة الأمة، وحدة الجنس البشري، وحدة المصير الواحد. وقد خاطب الله تعالى جميع الأنبياء بهذه الوحدة للأمة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ ﴾ [المؤمنون: 51]. وقد كان لكل نبي أمة وقومه خاصة، أما النبي عليه السلام خاتم النبيين فأمته جميع الناس. وقد فرض عليهم الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين تعزيزا لوحدة الأمة. أما وحدة الجنس البشري -أو الوحدة الإنسانية- فرسخها

[25] ابن بية. القيم المشتركة. مقال في موقعه تحت هذا الرابط.https://binbayyah.net/arabic/archives/148

بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم، والتعارف والتعاون فيما بينها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات: 13]."[26]

أما وحدة المصير، فإن الإسلام أرشد إلى ضرورة الاجتماع وتبادل المنافع والمكتسبات بين الشعوب والقبائل. فإن حال الإنسانية وشعوبها بمثابة من يسيران في صحراء، أحد السائرين عنده الماء، والآخر يعرف الطريق، ولا نجاة لأحدهما من دون الآخر، هذا بلا ماء يهلك، وذلك بلا هاد يضل ويهلك. فقدرات البشر أفرادا وشعوبا وقبائل محدودة، وإمكاناتهم لها نهاية، ولا يمكن بحال الاستقلال بالنفس في تحصيل مصالح نفسه، فالذي يمتلك التقنية ووسائل العلم والتكنولوجيا المنظورة يفتقد للمواد الخام والأولية، والذي يمتلكها يفتقد إلى الوسائل العلمية لاستثمارها، ولا سبيل إلى تحقيق مصلحة الإنسان في الأرض إلا من خلال التعاون والاجتماع على تطويع هذه الأرض وتبادل الخبرات والمكتسبات. وقد أرشد القرآن إلى الهجرة والضرب في الأرض طلبا للرزق وجعل أحد أسباب التوسعة في الأرزاق الضرب في الأرض إذا ضاق الرزق في أرض ما. ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ [النساء: 100] ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥ ﴾ [الملك: 15]. فالأرض كما يراها الإسلام من خلال هذه النصوص، هي أرض الإنسان، وخيراتها كلها للإنسان، ينال منها كل عامل بمقدار طاقته، والثمرات للناس فرادى وجماعات.[27]

إن التعاون والتعارف الذي جعله الإسلام غاية نبيلة من اختلاف البشر، هو أحد مؤسسات المشترك الإنساني، ويمكن أن نعدد من مظاهر هذا التعاون:[28]

1-اللقاء على مودة وتراحم في أمن وسلام، لا في حرب وخصام. فالسلام هو الأصل في الإسلام، ومنه اشتق اسم الإسلام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: 208] وفي الحديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».[29] وغاية ما يطلبه الإسلام من غير المسلمين أن يكفوا شرهم عن دعوته وأهله، وإذا تحققوا بهذه الغاية فهم والمسلمون في نظر الإسلام إخوان في الإنسانية، يتعاونون على خيرها العام، ولكلّ دينه يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، دون إضرار بأحد ولا انتقاص لحق أحد.[30]

---

[26] تفسير المنار 211/11

[27] بناء المجتمع الإنساني. ص53

[28] المصدر السابق. ص51

[29] صحيح البخاري. كتاب الإيمانباب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده13/1برقم10، مسلم. كتاب الإيمان باب أي الإسلام خير48/1 برقم71

[30] الإسلام عقيدة وشريعة. ص453

أما تشريع الحرب في الإسلام فليس فيه خروجا عن ذلك الوضع الطبيعي-أصل السلم- إلا إذا امتدت يد العدوان إلى أهله وحيل بينه وبين دعوته الناس وتبليغهم رسالة الإسلام. فهو علاج لانحراف لم ينفع معه الحكمة ولا الموعظة الحسنة. يقول تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحج: 39].﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة: 190]. وفي أول لحظة ترفع فيها راية السلم وينبذ فيها القتال، فالإسلام يكون سباقا لإرساء قواعد السلم: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: 61]. بل فتح الإسلام مجالا للمعاهدات تحقيقا للمصالح المشتركة، إما تثبيتا لدعائم السلم أو تعاونا على دفع عدو مشترك، كما جاء في الحديث:" ستصالحون الروم صلحا تغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم"[31] ومعاهداته عليه السلام في السيرة معلومة ومشهورة.

إن تغليب السلم على الحرب في نظر الإسلام، يعضده الجانب الإحصائي لمصطلحي السلم والحرب في القرآن، حيث ورد مصطلح السلم وما اشتق منه فيما يزيد على 140آية، بينما لفظ الحرب وما اشتق منه لم يرد إلا في ست آيات. ومما يستدل به على كراهية الحرب ما صح عنه أن من أقبح الأسماء، حرب ومرة. والحرب تكره لما فيها من القتل والأذى.[32]

2-من مظاهر التعاون، التسامح العام والتراحم: إن القانون الأخلاقي الذي ثبته القرآن الكريم الدفع بالتي هي أحسن. فالإحسان يورث الإحسان. ومواضع عديدة في القرآن أرشد فيها المولى تعالى نبيه عليه السلام إلى التزام هذا الخلق في التعامل مع الذين عاملوه بجهل وأذى. قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: 199]﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ [الحجر: 85] ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف: 89]

والمراد بالصفح حسن المخالفة وهي المعاملة بحسن الخلق.[33] وموقفه بل مواقفه مع قريش وغيرها ممن حاربوه، مما يؤكد أصالة العفو والتسامح التي طبعت تعامله مع من بادروه بالحرب والقتال في فتح مكة بعد أن دانت له قريش وخضعوا لحكمه جمع الملأ منهم فقال:" ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء."

والرحمة التي جعلها عنوان تعامله ﷺ مع الخلق هي التي تتجه إلى الكافة أي الرحمة الإنسانية العامة. يقول النبي ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[34] وليست الرحمة الإنسانية اختيارا في الأحوال الطبيعية أو الظروف العادية، بل هي التزام إنساني في حال الحرب. والمحفوظ من سيرته ووصاياه، النهي عن قتل الولدان ومن كان على شاكلتهم من

---

[31] صححه الألباني في التعليقات الحسان 385/9

[32] التحبير لإيضاح معاني التيسير 378/1

[33] الشنقيطي. أضواء البيان 314/2

[34] البخاري. كتاب التوحيد. باب قول الله تبارك وتعالى {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى 2686/6برقم 6941

الضعفاء من النساء والشيوخ والعجائز. ومن ذلك الإحسان إلى الأسرى وبه كان الثناء في القرآن على أهله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾ [الإنسان: 8]. ومن ذلك: عدم الإفساد بحرق أو بإغراق أو بعقر أو بهدم أو بقطع للأموال والممتلكات. « ولا تغرقن نخلا ولا تحرقنها ولا تعقروا بهيمة ولا شجرة تثمر ولا تهدموا بيعة ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء.. »[35]، ومن ذلك عدم التمثيل بالميت وقد ورد النهي الصريح عنها.

3-ومن مظاهر التعاون، التنادي إلى المشاعر الإنسانية والقيم الأخلاقية النبيلة:

إن مراعاة مشاعر الإنسان وعواطفه واحترام أحاسيسه سبيل قويم لتحقيق التعاون والتعارف. ومظاهر الاحتقار والتقليل من الاحترام خاصة على مستوى المشاعر والأحاسيس مما أدرجه الإسلام ضمن كبائر الذنوب والمعاصي تنبيها إلى خطورتها وأثرها السيء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات: 11].. وهذه الآية تحمل دلالات كثيرة في تعزيز التعاون والمشترك الإنساني دلالة كلمة القوم، حيث لم يذكر الأفراد مع شمول الحكم لهم، بل تعداه إلى الجماعة والقوم تنبيها على أثرها على العلاقة بين الأقوام والشعوب، ثم دلالة عقلية، وهي أن المسخور منه من القوم قد يكون أفضل من الساخر، ثم دلالة أنفسكم، حيث وضع الآخر موضع النفس. فالسخرية من الآخر هي في الأصل سخرية من النفس، لأن غيرك جزء منك.

ولم يقتصر الأمر على احترام المشاعر الإنسانية للآخرين، بل تلبية نداءات المشاعر الإنسانية إذا نودي إليها. ففي حلف الفضول تجسيد لصورة كريمة من صور التعايش الإنساني المشترك الذي تنادت فيه المشاعر الإنسانية الكريمة لنصرة المظلوم. فلم يكن مؤسسا على معتقد ديني أو انتماء قبلي، وإنما كان تجسيدا لمخزون من منظومة قيمية كانت عند العرب في جاهليتها قبل الإسلام. فهو تحالف إنساني حضره النبي عليه السلام قبل بعثته وأبدى رغبته في حضوره بعد الإسلام لو دعي إليه. وما تضمنه هذا الحلف جعله الإسلام شرعا تناط به الحقوق والواجبات. يقول البراء بن عازب: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصرة المظلوم».[36] وقوله ﷺ في حديث أنس: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» [37] وفي قوله: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقاب.»[38]

إن حلف الفضول وغيره من الأعمال الإنسانية، يزيح اللثام عن أهم قضية من القضايا الإنسانية التي ينبغي العمل والاجتهاد لتحقيقها، وهي الاقتناع والإقناع بسلوك سبيل الخير، لأن الإقناع العقلي وسيلة من وسائل التعايش المشترك.[39] وفعل الخير وسلوك مسالكه من كليات الشريعة التي دلت عليها قطعيات النصوص، وهي قيمة مطلقة

---

[35] البيهقي. السنن الكبرى85/9

[36] الطبراني. مكارم الأخلاق. ص399

[37] البخاري863/2برقم 2311

[38] رواه أصحاب السنن وقال الترمذي: حسن صحيح. انظر. العراقي. تخري أحاديث الإحياء1272/3برقم 1925

[39] ابن بية. القيم المشتركة. https://binbayyah.net/arabic/archives/148

عن أي قيد أو تحديد: ﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴾ [الحج: 77] ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [البقرة: 195].﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: 8]. وفي الحديث: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو شيء إلا كان له صدقة». [40] «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».[41] وفي الطبراني وغيره: «الخلق كلهم عيال الله وأحبكم إلى الله من أحسن إلى عياله».[42]

ولا شك أن هذه القضية هي أحد القيم المشتركة التي يجتمع في التأكيد عليها الشرع والعقل والفطرة.[43] وكل القيود والحدود والفواصل تغيب إذا سطعت شمس هذه القيم المشتركة، وحتى لو رسّمت هذه الحدود والفواصل[44]، فإنها لا تكون عاملا من عوامل التقاطع والانحراف عن الخط المستقيم الذي يوصل إلى الغايات الواحدة وتحقيق المصالح المشتركة، بل يكون لكل أحد خط مواز لخط أخيه، تلتقي الجهود والغايات من خلالها في مصب واحد، وهو خدمة الجماعة الإنسانية.

---

[40] صحيح مسلم27/5برقم 3968

[41] صحيح البخاري964/2برقم 2560

[42] ضعفه النووي وغيره. انظر العجلوني. كشف الخفا437/1

[43] يقول الفيلسوف الإنجليزي جون لوك(1704):" فلدى البشر من العقل الطبيعي ما يكفي ليرشدهم إلى عدم ضرا بعضهم البعض وذلك سواء بالحياة والصحة والحرية أو الممتلكات، فهناك قانون طبيعي أخلاقي، وهو قانون بسيط وواضح لكل إنسان يتمتع بقواه العقلية." السرجاني. المشترك الإنساني. ص674

[44] أعني بها مظاهر الاختلاف والتنوع وهي عبارة ذكرها أبو زهرة في كتابه المجتمع الإنساني. ص46

المحور الثاني: عرض وتحليل للمقاصد القرآنية الموظفة في بناء المجتمع الإنساني المعاصر.

إن محاولة الكشف عن مقاصد القرآن وغاياته خاصة ما تعلق منها ببناء المجتمع الإنساني، تجد أهميتها في أمرين هامين:

أولهما: التأكيد على أن القرآن الكريم هو كتاب الإنسانية كلها، خطاباته ومقاصده وغاياته تنتهي إلى خدمة الجماعة الإنسانية وتحقيق مصالحها المشتركة، لأن علم المقاصد كما وُصف هو علم الصلاح الإنساني.

ثانيهما: التعريف بحقائق الإسلام المغيبة والتي يحاول الألدّاء من الخصوم طمسها وتشويهها صرفا للناس عن هداية القرآن. والكشف عن مقاصد القرآن في هذا المجال، خير مدخل للتعريف بالإسلام الصحيح من غير تحريف ولا تشويه.

وسوف أقتصر على أهم المقاصد القرآنية والتي يمكن توظيفها في بناء إنساني مشترك:

أولا/ مقصد إعمار الأرض: يعتبر هذا المقصد من المقاصد الإنسانية التي تضمنها القرآن الكريم، وفي كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة تحدث الراغب الأصفهاني عما لأجله أوجد الإنسان من حيث الفعل الذي يختص به ولولاه لما وجد: يقول:" والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

1 – عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: (واستعمركم فيها) وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره.

2 – وعبادته المذكورة في قوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون." وذلك هو الامتثال للباري – عز وجل – في أوامره ونواهيه.

3 – وخلافته المذكورة في قوله تعالى: (ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه".[45]

والاستعمار الوارد في الآية، معناه طلب العمارة، والطلب المطلق من الله على الوجوب.[46]

وعلى هذا التقرير لمعنى الاستعمار وحكمه، فإنه لا يخرج عن المقصدين الآخرين، لأن المفهوم الحقيقي للعبادة بمعناها الواسع يشمل عمارة الأرض.

والاستخلاف في الأرض له غايتان: إحداهما: عمارة الأرض وثانيهما الإصلاح. يقول البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ [البقرة: 30] والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه

---

[45] الراغب. الذريعة إلى مكارم الشريعة. ص83

[46] ابن العربي. أحكام القرآن18/3

الصلاة والسلام، لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي، استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم."[47]

وعمارة الأرض لها بعدان: بعد مادي: بإصلاحها وإحيائها بالغرس والزرع، وبناء المرافق وتشييد المنشآت على ظاهرها واستخراج كنوزها وخيراتها من باطنها، وبعد ديني: بالدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والتحلي بالأخلاق الكريمة والقيم النبيلة.

والوجوب الذي أُعطي حكما لعمارة الأرض يتوزع على ناحيتين: ناحية إيمانية، باعتباره مكلفا بامتثال أوامر الله تعالى ومنها تعمير الأرض، وناحية إنسانية، باعتباره عضوا في الجماعة الإنسانية وهو مطالب بالتعايش مع البشر جميعا في إطار التعاون الإنساني.

وهاتان الناحيتان المتعلقتان بواجب إعمار الأرض متلازمتان باعتبارهما من مقتضيات عمارة الأرض ومستلزماتها. فإصلاح الإنسان نفسه وتكميلها بامتثال الشرع والتزام أوامره عنوان الإصلاح الحقيقي. والصالح في نفسه لا يصدر منه إلا فعل الصلاح، والمفسد لا يصدر عنه إلا الفساد وإن ظنه صلاحا كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة: 11]. ومحل الفساد المنهي عنه، الأرض. ومعلوم أن فسادهم في رقعة وجزء منها، وفيه دلالة على أن الإفساد في بعض أجزاء من الأرض تشويه وإفساد لمجموعها مما تحتويه هذه الأرض من الناس والحيوان والنبات وسائر الأنظمة والنواميس التي وصفها الله تعالى.[48]

إن إعمار الأرض مقصد يتصالح مع كل مكونات هذه الأرض وأهلها الذين يتشاركون في خيراتها وثرواتها، ولن يتحقق هذا التصالح إلا بالالتزام بالضوابط الأخلاقية والمبدئية التي تصاحب عملية الإعمار، كإتقان الأعمال، والبعد عن الضرر والإضرار، وتجنب أسباب الحيف والظلم والتعدي على الحقوق، وتقديم المصالح الذاتية على المصالح المشتركة.

إن القرآن الكريم منهج حياة واقعية بكل مقوماتها ومكوناتها، فليس هو مجرد شعائر تعبدية وعقيدة وجدانية منعزلة عن الحياة، بل هو عقيدة وعمارة، شعائر وإصلاح في الأرض. قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف: 129].

ثانيا/ مقصد العدل: إن عالمية رسالة الإسلام وعمومية دعوته وشمول رحمته لجميع الخلق وعباد الله تعالى عربا كانوا أو عجما، بيضا كانوا أو سودا، في مشارق الأرض أو مغاربها، يؤكد عنايتها بخير هذه الإنسانية واهتمامها بما يحقق مصالحها فهي رسالة يشع نورها ليشمل الكافة ويتسع خيرها ليعم غيرها. فلا يجوز لها من هذا المنطلق كما قال

---

[47] تفسير االبيضاوي1/280

[48] التحرير والتنوير1/285

القرضاوي: أن تحتكر الخير والنور لنفسها، بل عليها بعد أن اهتدت بنور الله تعالى أن تهدي الآخرين إليه، وبعد أن صلحت بالإيمان والعمل الصالح أن تصلح الأمم، وتدعوها إلى الخير الذي أكرمها الله تعالى به."[49]

ومن أهم تجليات هذا الخير الذي خص الله تعالى به هذه الرسالة العالمية، إقامة العدل بين كل الناس بلا تمييز لون، أو دين، أو عرق أو انتماء. وقد اعتنى القرآن بالتأكيد على وجوب إقامة العدل في مواضع منه، أجمعها قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ [النحل: 90]. وقد رويت آثار كثيرة عن السلف في اعتبار هذه الآية جامعة لمعاني الخير والشر كله. يقول ابن مسعود:" هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل ولشر يحتسب." والعدل الذي تضمنته هذه الآية، الأمر به كلمة جامعة يعني بها إعطاء الحقوق لأصحابها، وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المعاملات.[50]

والعدل في المعاملة يشمل العدل في معاملة الخالق بتوحيده والإيمان به وأداء حقوقه، والعدل في معاملة المخلوقين الأقارب كما في أصول المعاشرة العائلية أو أحكام نظام المنزل، والأباعد كما في أصول المعاملة والمخالطة الاجتماعية من الآداب والحقوق المختلفة: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: 8]. فالعدل قيمة إنسانية تعلو على كل صلة من قرابة أو بعد، وتسمو فوق كل عاطفة من حب أو كره: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ١٣٥ ﴾ [النساء: 135].

وقد أنزل الله تعالى على نبيه آيات تضمنت تقويما له عليه السلام على الجادة في الحكم، وتأنيبا ما على قبول ما رفع إليه في شأن سرقة متاع اتهم به يهودي بريء، والسارق غيره، مسلم أو منافق يظهر الإسلام. يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ ﴾ [النساء: 105].[51]

وشواهد التاريخ حافلة بالمواقف المشرفة التي التزم فيها المسلمون بالعدل في معاملة الشعوب كلها.

إن شيوع العدل والتزام القيام به من أقوى المؤثرات في تقوية الروابط الإنسانية، فالذي يعدل مع نفسه ويؤدي للناس ما يحب أن يؤتى له، ويعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به، هو الذي يوجد هذا الاتصال المستمر بين البشر ويقوي نسيجهم الاجتماعي والإنساني. يقول النبيﷺ «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي على الناس ما يحب أن يؤتى إليه»[52] يقول القرطبي في المفهم:" يجيء إلى الناس

---

[49] كيف نتعامل مع القرآن. ص115

[50] التحرير والتنوير254/14

[51] تفسير ابن عطية108/2

[52] صحيح مسلم18/6برقم 4804

بحقوقهم من النصح والنيّة الحسنة بمثل الذي يحبُّ أن يُجَاءَ إليه به، وهذا مِثلُ قوله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه."[53]

ليس يعني شيئا أن يفرّ من أعلن إسلامه فيبدل دينه ويلتحق بالكفار، لأنه أبى أن يخضع لسلطان العدالة كما حصل مع أحد أمراء الغساسنة لما لطم رجلا من فزارة وطئ ثوبه في الطواف، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فقال عمر للغساني:" القصاص أو يعفو عنك." ولم يرض الرجل إلا بالقصاص لطمة بلطمة، فأنف الغساني ففر إلى الروم مرتدا. يقول أبو زهرة:" وما أهمّ ذلك عمر، فإنه خير للإسلام أن يخرج منه من م يعمر الإيمان بالعدل قلوبهم من أن يقر ظلما أو يأخذ بالهوادة ظالما. فالظلم ينفر القلوب ويبعد أهل الحق والعدل يقرب ذوي القلوب الطاهرة التي تتجه إلى الحق تبتغيه وهؤلاء مهم يكن عددهم أوفر خيرا وأعظم أثرا."[54]

إن عقود الأمان وعقود الذمة التي قررت حرمتها ومواثيقها الغليظة الأحاديث النبوية المطهرة، تكريس للعدالة الإنسانية وتهيئة لقاعدة التعايش الإنساني المشترك. فالأموال مصونة، والأنفس مؤمّنة، والفرص متاحة بقدر متساو بين الجميع، والحقوق محفوظة، له ما لغيره وعليه ما على غيره. بل إن الفقهاء قرروا–وهذا منتهى ما يمكن تصوره في المعاملة الإنسانية العادلة–أن المستأمن يبقى أمانه على ماله ما دام في بلاد المسلمين حتى ولو لحق بدار الحرب محاربا، يبطل الأمان في نفسه، لاختصاص البطلان به، ويبقى الأمان عليه في ماله، وإذا مات مكّن ورثته من هذا المال ووجب على المسلمين إرسال ماله إليهم.[55]

إن العدالة التي قصد إليها القرآن هي من الحقوق الطبيعية للإنسان بالاعتبار الإنساني القائم عل أساس الكرامة الإنسانية. فالحق فيها قائم على معنى الإنسانية ولا أثر لغير هذا المعنى أو الحق الإنساني في المعاملة القائمة على العدل:" ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة: 8].

إن مراعاة هذا المقصد من شأنه أن يوجد تلك المساحة من التعايش المشترك وبناء المجتمع الإنساني، والعمل في هذا الجانب يكون بالاستناد إلى الكليات الشرعية والعقلية لتأصيل مفهوم المشترك الإنساني الذي يجتمع حوله العقلاء مع قدر من التنازلات عن شكليات الأمور التي لا أثر لها في إبقاء الحقائق على ما هي عليها، كما فعل عمر بن الخطاب مع عرب بني تغلب لما قالوا له:" نحن قوم عرب نأنف من كلمة جزية، فخذ منا ما نأخذ باسم الصدقة ولو مضاعفة فقبل منهم."[56]

---

[53] المفهم52/4

[54] أبو زهرة. المجتمع الإنساني. ص170

[55] المغني لابن قدامة245/9

[56] القاسم بن سلام. الأموال74/1

ومثله اليوم مصطلح " أهل الذمة" واستبداله بمصطلح المواطنة، إذا كان مصطلح "الذمة" عائقا، وشعورا بالنقص من قبل القوم.

ثالثا/ مقصد الرحمة والمودة: لا يبتعد هذا المقصد القرآني كثيرا عن مقصد العدل، لأن لإقامة العدل تأتي على رأس مظاهر الرحمة والمودة. وأعظم خصيصة وصفت بها هذه الرسالة الإسلامية هي صفة الرحمة، فرسالة الإسلام هي رسالة الرحمة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء: 107]

إن أعظم بناء هو ذلك البناء الذي تبنى فيه العلاقات على الروابط المعنوية والأدبية، ويأتي في مقدمتها الرحمة والمودة. والمجتمع في الإسلام كما قال أبو زهرة، هو مجتمع معنوي، إطاره الفلسفي والاجتماعي يرتكز على الصلات المعنوية والروابط الأدبية التي تقوم على معاني الرحمة والمودة، وعليها يقوم بنيان الجماعة الإنسانية."[57]

إن أي بناء اجتماعي أو إنساني مهما كان متناسقا هندسيا تحكمه منظومة قانونية واقتصادية وسياسية قوية، إلا أنه لا يكون بناء متماسكا ولا متلاحما، ينهار لأقل عاصفة. أما المجتمع المعنوي، فمهما كان طابعه الهندسي غير منسق ولا منظم اقتصاديا أو ماديا، إلا أنه يظل مع ذلك مترابط الأجزاء متماسك الأوصال.[58]

إنه بأدنى تتبع لمواضع الرحمة الواردة في القرآن سواء عرّفنا الرحمة بالانفعال، مشاعر الرقة واللين والعطف، أو عرفناها بالفعل، وهو أثر هذه الرحمة من الإحسان إلى المرحوم والرفق به وإعانته. فعلاقة الأبناء بالآباء قائمة على قاعدة الرحمة ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [الإسراء 24] والعلاقة الزوجية علاقة رحمة ومودة:﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً ﴾ [الروم: 21]. وعلاقة الأخوة الدينية، علاقة رحمة: ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح: 29]. ودعوة غير المسلمين والتعامل معهم مبنية على الرحمة: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾ [الشعراء: 3] ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾ [التوبة: 128].

إن الرحمة التي أرشد إليها القرآن الكريم وطبع بها تعاليم شريعة الإسلام وأحكامه قيمة خلقية مطلقة لا تتأثر بجنس، أو لون، أودين، أو انتماء، هي حق إنساني مطلق، المعنى الوحيد المعتبر فيه هو المعنى الإنساني، وليس ثمة ما يبرر القسوة والعنف بحال. في الحديث: «ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة».[59] لما ضرب أبو مسعود عبده بالسوط قال له النبي:" اعلم أبا مسعود قال فجعلت لا ألتفت إليه من الغضب حتى غشيني فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فلما رأيته وقع السوط من يدي من هيبته صلى الله عليه وسلم , فقال: لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله لله أقدر عليك

---

[57] أبو زهرة. المجتمع الإنساني. ص121

[58] المرجع السابق. ص122

[59] الألباني. السلسلة الصحيحة807/1

منك من هذا» فقلت: والله يا رسول الله لا أضرب غلاما لي أبدا."[60] وفي المملوكين قال: «إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم عليه».[61]

إن نشوة الانتصار وحرارة الانتقام من فرط الأذى والظلم الذي تعرض له نبي الإسلام لم يكونا كافيين في أن يمنعا الرسول عليه السلام أن يسلط عقابه وينزل عذابه بمن اجتهد وجاهد وصبر وصابر في أذيته والإساءة إليه عليه السلام. فكانت قولته النابضة بالرحمة:" ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء." غير أن الذي يهمنا تقريره هنا، هو في الارتباط بين الرحمة وآثارها على التلاحم والترابط الإنساني بشكل عام، ويمكننا أن نرصد هذه الارتباط في آثار التخلق بخلق الرحمة. فمن هذه الآثار: اجتماع القلوب وتماسك الصف، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: 159]. وقد ذكر القاضي عياض رحمه الله تعالى في الشفا أن رحمته عليه السلام التي طبع عليها كانت سببا في إصلاح نفوس عتية كثيرة ودخولها الإسلام. يقول عليه السلام في قصته مع الأعرابي الذي أعطاه وأحسن إليه عليه السلام وتنكر لإحسانه ومعروفه ثم زاده حتى رضي وأثنى عليه. وبعد أن هاج الصحابة في وجهه، قال عليه السلام:" إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فقال صاحب الناقة: خلو بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم بها فتوجه إليها صاحب الناقة فأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها واستوى عليها ولو أني أطعتكم حيث قال ما قال دخل النار. "[62]

إن الذي يترك دينه ومعتقداته بسبب موقف رحيم وتعامل رفيق لا يصعب عليه أن يتعايش مع صاحب هذا الخلق ويكون في كنفه وإن ظل متمسكا بدينه وعقيدته. في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ [الفرقان: 63] أثر الرحمة في تحقيق السلام أي تسلمون منا، فلا نؤذيكم بقول أو فعل، والإضافة هنا إلى اسم مشتق من الرحمة وهو الرحمن.

إن الرحمة التي جعلها القرآن الكريم أصلا في التعامل مع الناس، مبناها على النظرة الإنسانية الشاملة لكل البشر في الفرآن الكريم، فالقتل –وهو منتهى القسوة أو أعلى درجاتها – محرم لكل نفس، والظلم محرم لكل نفس: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: 151]

---

[60] البيهقي الآداب. ص25

[61] صحيح البخاري1/20برقم30

[62] الشفا1/169

﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧ ﴾ [الأنبياء: 47]، وقد برر ﷺ وقوفه لجنازة اليهودي لما مرّ بها عليه بقوله:" أو ليست نفسا." [63]

واليهودي هذا غير معروف ولم يجمع بينه وبين النبيﷺ سابق معرفة أو سابقة إحسان حتى يقال: إنه إحسان بإحسان ومعروف بآخر.

إن تأصل هذه الخلفية والمرجعية–النظرة الإنسانية– في التعامل مع الناس من شأنه أن يوسع قنوات متعددة في التواصل مع البشر جميعا على اختلافهم لونا وعرقا ودينا وانتماء، وأن الناس لا يؤخذون بسبب خلافهم في العقائد والأديان، خصوصا وأن القرآن الكريم جعل هذا الخلاف سنة كونية حتمية: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ ﴾ [هود: 118].

إن قوما يعلمون أن النبيﷺ الذي أرسله الله بهذا الدين، والذي كان يسوسهم بأحكام هذا الدين، يزور مرضاهم وهم من عامة الناس عندهم بل من بسطاء الناس عندهم كما في حديث أنس قال: «كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار. » [64] لا يترددون لحظة في قبول العيش في كنفهم والتفيؤ بظلال رحمتهم وعدلهم. وتأمل جيدا في هذه القصة قبل أن يعود النبي عليه السلام هذا الغلام كلان قد استخدمه عنده، فالعلاقة بينهما علاقة خادم ومخدوم، وفي ظني أن التاريخ البشري في عامة أطواره لم يسجل موقفا مثل هذا الموقف، مخدوم: سيد، نبي، حاكم، رئيس لدولة، مسلم، يزور خادما، غلاما، محكوما، يهوديا، منتهى الرحمة وأعلى درجات البر من نبي الإسلام عليه السلام.

رابعا/ مقصد السلام العالمي:

إن آيات الجهاد في سبيل الله تعالى وقتال المشركين والكفار بالنفس والمال والثواب الذي أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله وكرامته لمن مات شهيدا منهم في المعارك والحروب، قد يثير استغراب في أن يكون من مقاصد القرآن الذي حوت دفتاه هذه الآيات أنه يدعو إلى تحقيق السلام العالمي بين شعوب البشر جميعا.

وقبل أن أستعرض الأدلة الدالة على مقصدية السلم في القرآن وبيان طبيعته في الإطار التشريعي، لا بد من قراءة تاريخية لمقصد السلام في القرآن وبيان طبيعته في الإطار التشريعي.

---

[63] رواه البزار وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو متروك. مجمع الزوائد576/8

[64] البخاري455/1برقم1290

المعلوم من سيرة النبيﷺ أنه مكث بمكة موطن انطلاق الدعوة أكثر من أحد عشر عاما، يدعو هو وأصحابه إلى دعوتهم سرا ثم جهرا، سلما، رغم ما تعرضوا له من أذى واضطهاد وتعذيب، ولم ينازعوا أحدا سلطانه ولا ماله ولا منصبه ولا جاهه، ولم يمارسوا إكراها أو قسرا على أحد من السادة وأعيان القوم أو من السوقة والعبيد منهم. وتأكيدا على سلمية الدعوة وأصالتها فيها هاجر النبي ﷺ وأمر أصحابه بالهجرة، بعد سنوات شديدة حاصرتهم فيها قريش حصارا اقتصاديا واجتماعيا وحتى نفسيا، ولم يدفع كل ذلك رسول اللهﷺ إلى استعمال العنف وسل السيف، بل الذي كان منه، هجرته لمكة، وحتى وهو يريد الهجرة لم يسلم من محاولات قريش من اغتياله وقتله ورصدها المكافآت المغرية لمن جاء به عليه السلام حيا أو ميتا.

وصل النبيﷺ إلى المدينة، وبايعه الأنصار على السمع والطاعة والنصرة والحماية وضل رغم تعزز جانبه بقوة الأنصار ومنعهم له واستعدادهم للجهاد، متمسكا بسلميته في الدعوة والتبليغ، وفور وصوله إلى المدينة وقّع اتفاقية السلم والتعايش المشترك مع اليهود، والتكافل بين المسلمين في مجتمع واحد. ومع كل هذا لم يمنع النبيﷺ من كيد قريش ومحاولتها القضاء عليه وعلى دعوته بالهجوم عليه في المدينة وحشدها القبائل والعرب لقتال رسول اللهﷺ.

بعد كل هذا الصبر والتمسك بالسلمية نزل الإذن بالقتال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ﴾ [الحج: 39]. والقتال هنا قتال دفاع عن النفس والعرض والمال. وعند التأمل في هذه الآية أو لما نزل في الإذن بالقتال، نجد أنه ليس قتلا مطلقا، بل مقيد بأنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق. وهكذا لو استعرضنا أدلة الإذن بالقتال، لوجدناها مقيدة، إما بالدفاع عن النفس، أو لرد العدوان، أو لدفع الظلم، أو للدفاع عن المقدسات والمكتسبات. ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠ ﴾ [البقرة: 190]. فقوله: فقاتلوا: ردا للعدوان، وأنتم تقاتلون، لا تمارسوا العدوان ولا تقاتلوا من لم يقاتلكم. وقوله: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣ ﴾ [البقرة: 193]. والفتنة، تعني اضطهاد الناس وتعديهم من أجل عقيدتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ ﴾ [البروج: 10]. أي أحرقوهم بالنار بسبب عقيدتهم وإيمانهم.

وقوله: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥ ﴾ [النساء: 75]. والمعنى أي شيء يمنعكم عن القتال وأنتم تقاتلون عن المستضعفين أي لأجل نفعهم ودفع المشركين عنهم والمراد بالمستضعفين من بقي من المؤمنين بمكة من الرجال والنساء الذين منفعتهم قريش من الهجرة بمقتضى الصلح الذي انعقد بين النبيﷺ وقريش.[65]

---

[65] التحرير والتنوير 122/5

وقوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ [التوبة: 12] ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾ [التوبة: 13]، فنقض العهود والطعن في الدين، وإخراج الرسول بلا ذنب ولا جريرة وابتداء القتال كلها تقييدات للقتال في هذه الآيات الكريمات.

إن مصطلح الحرب المشروعة لا يمكن أن يجاوز وصف المعارك والحروب التي خاضها النبيﷺ والمسلمون، فمبدأ المعاملة على المثل، ورد العدوان، ومشروعية الدفاع عن النفس المقدس، ونصرة القضايا العادلة، ونصر المظلومين والمستضعفين، هي أسباب القتال في الإسلام. ولا يمكن بحال بالنظر إلى هذا التقرير–اعتبار الحرب أصلا في الإسلام وضدها استثناء.

إن دعوة الإسلام إلى السلم دعوة أصيلة ودعوة إلى حالة أصيلة: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ [الأنفال: 61] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ [البقرة: 208]، ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦ ﴾ [التوبة: 6]، ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ ﴾ [الممتحنة: 8]. ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ [الأنفال: 62]

يعني حتى ولو أبطنوا العذر وبينوا الخيانة فاجنح للسلم إن أظهروا الجنوح إليها. وفي قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥ ﴾ [الأحزاب: 25]. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤ ﴾ [الفتح: 24]، سيقت في معرض الامتنان على المؤمنين في رد عدوهم وأن الله تعالى كفاهم القتال وأراحهم من تبعاته وأثقاله. ولا يمكن أن يكون هذا الكف عن القتال منّا ونعمة ممن هو متعطش للقتال والدماء كما يشاع عن الإسلام.[66]

وننقل هنا كلاما مهما لابن القيم–رغم طوله– يوضح فيه مشروعية القتال وطبيعته في الإسلام، فيقول:" فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم استجاب له ولخلفائه بعده أكثر أهل الأديان طوعا واختيارا، ولم يكره أحدا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالا لأمر ربه سبحانه وتعالى حيث يقول: لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، وهذا نفي في معنى النهي، أي لا تكرهوا أحدا على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد، قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه وتعالى عن ذلك حتى يكونوا هم

[66] كيف نتعامل مع القرآن. ص125

الذين يختارون الدخول في الإسلام. والصحيح: الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية، كما تقوله أهل العراق، وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان. ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تبين له أنه لم يكره أحدا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيما على هدنته، لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. فلما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدءوه بالقتال قاتلهم، فمن على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقاتل بعضهم. وكذلك لما هادن قريشا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدءوا هم بقتاله ونقض عهده، فحينئذ غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم الخندق، ويوم بدر أيضا هم جاءوا لقتاله ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم. والمقصود أنه صلى الله عليه وسلم لم يكره أحدا على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختيارا وطوعا."[67]

وقد أوضح العلامة علال الفاسي في كتابه المقاصد، عالمية السلام الذي دعا إليه الإسلام وأنه من أوضح مقاصده، إعلان قرآني بوجود سلام تندمج فيه الإنسانية كافة، وذكر لتحقق هذا السلام العالمي أمرين: الاتفاق على تحريم الحروب والتضامن في دفع المعتدين والجائعين والتعاون على منع العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي تؤدي إلى الحرب بين الناس، ثم بيّن رحمه الله تعالى أن القرآن أعلن المساواة بين البشر في آية التعارف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات: 13]. ودعا هؤلاء الناس أن يضمنوا لوجودهم البقاء ولمجتمعهم الأمن والطمأنينة، وذلك بالإقلاع عن الحروب الخاصة والعامة والتداعي إلى السلام الدائم والتعاون عليه.[68]

إن إعمال النظر المقاصدي في الحرب المشروعة التي أشرنا إليها سابقا يجعلها ممنوعة في حالات: إذا لم يبق موجب من قيام الأسباب المذكورة، لأن الجهاد ضرورة تقدر بقدرها.

-الجنوح إلى السلم، لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ ﴾ [الأنفال: 61].

-التوقيع على المعاهدات السلام العالمية ما دامت ضامنة لقوة تحمي الأقليات والمستضعفين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ [البقرة: 208].[69]

---

[67] هداية الحيارى 238/1

[68] علال الفاسي. مقاصد الشريعة ومكارمها. ص231-232

[69] المرجع السابق. ص233

إن أخلاقيات الحرب المشروعة في الإسلام تضيف شاهدا آخر مؤكدا على أن دعوة الإسلام هي دعوة إلى السلام، وأن المقصود من الحرب التي شرعها الإسلام الإصلاح وقطع دابر الفساد، حرب لا تتنكر للإنسانية ولا تجانب العدل ولا تعادي القيم والمبادئ.

خامسا/ مقصد تحرير إرادة الإنسان:

يقوم أساس المنهج الدعوي للأنبياء والمرسلين عليهم السلام على دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه. والمقصود من هذا التوحيد كما قرر تقسيمه ابن تيمية وغيره رحمه الله تعالى. توحيد الألوهية أو توحيد العبودية، لأن الذي دلت عليه نصوص القرآن والسنة في مجموعها أن دعوة الأنبياء كانت موجهة لأقوام لا ينكرون الخالق ولا يجحدون صفات الربوبية، لكنهم اتخذوا لهم شركاء يعبدونهم من دون الله تعالى. يقول تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: 61]. فالقصد الأساسي من دعوة المرسلين، هو تحرير الإنسان من الخضوع لغير الله تعالى وهذا هو الأثر الاجتماعي لنفي الشريك عن الله تعالى[70] من الطغاة الذين تألهوا وعبّدوا الناس لهم، أومن الرهبان والأحبار الذين احتكروا السلطة الروحية والدينية، فزينوا الاسترقاق والاستعباد وبرروه بتحريف الكلم عن مواضعه، ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: 31].

وقد قطع الإسلام كل استغلال لسلطة كهنوتية أو رتبة دينية لتعبيد الناس لغير الله تعالى ولو كانت من نبي ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ [الشورى: 51]، وقال في شأن الملائكة: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ [الأنبياء: 29] فالاعتقاد الصحيح في الله تعالى تفويت لكل أشكال التحكم والتسلط في عقول البشر وأبدانهم، فلا حكم إلا لمن أمدّ بالنعم، ولا أمر إلا لمن خلق ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: 54]. ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ ﴾ [الأنعام: 114]. فسلطة الأمر والتشريع التي أرشدت إليها هذه الآيات يمثلان أساس المنهج الإسلامي في المنع من تفويت حرية الإنسان باعتبارها حقا إنسانيا طبيعيا لكل بشر. ولهذا كان أول وأقدس مظاهر هذه الحرية التي كفلها الإسلام، حرية المعتقد: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: 29] فليس من حق أي إنسان أن ينصب نفسه قاضيا أو حكما بين معتقدات الناس، وظيفته لا تعدو البيان والبلاغ. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام: 108] ﴿ فَذَكِّرْ ۖ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ [الغاشية: 21] والحوار إذا لم يصل إلى نتيجة فلكل أحد دينه ومعتقده، ﴿ قُلْ

[70] الفاسي. مقاصد الشريعة. ص210

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾ [آل عمران: 64].

يقول أحد فلاسفة الغرب:" إن عقيدة الإسلام تصلح أن ينعكس نورها على الاجتماع الإنساني."[71]

ولا يعسر على من عرف حقيقة هذا الدين، البرهنة على صحة هذا الكلام. فالإسلام الدين الوحيد الذي يعترف بجميع الديانات السماوية السابقة وكتبها المنزلة، والقرآن نفسه يصرح أنه جاء مصدقا لما قبله من الكتب. ويصرح النبي ﷺأنه جاء ليتمم بناء الرسل: " وأنا موضع اللبنة فيه."[72]

والجزية التي يدفعها الرعايا غير المسلمين في مقابل الدفاع عنهم وحماية معتقداتهم ونفي الإكراه في العقيدة وتشريع سبل الإقناع والمحاورة والجدال الحسن من المبادئ التي رسخها القرآن. إن تقرير الإسلام لحرية إرادة الإنسان لهو أمر أصيل مقطوع به في الإسلام، وهي من المشتركات الإنسانية العامة التي تتلاقى عليها جميع الشعوب ومتى أُخذ شيء من حرية الإنسان فقد أُخذ شيء من كرامته. فلا كرامة بلا حرية ولا حرية بلا كرامة. ويستهدف القرآن من خلال هذه المقاصد التي استهدفها إلى إيجاد المساحات المشتركة وبناء القيم الإنسانية الواحدة التي يمكن أن تلتقي عليها جميع شعوب الأرض وأممها.

الخاتمة: لأهم النتائج والتوصيات

-يعتبر القرآن الكريم المقصد الأساس في التأصيل للمقاصد الإنسانية المشتركة والتي تؤسس لمفهوم المشترك الإنساني.

-خطاب الإنسانية في القرآن خطاب ركائزي يؤسس للعلاقات الإنسانية الجامعة ودلالة العد والإحصاء من أكبر الشواهد على ذلك.

-من أصول الإنسانية المشتركة التي أسس لها الإسلام التكريم الإنساني.

-إن المعاني الإنسانية التي صاحبت التشريع في كثير من مجالاته والتي تؤسس للمبادئ الإنسانية المشتركة لم يقتصر وجودها على الحضور الأدبي المجرد بل استحالت واقعا شاهدا عليها.

-إن الاختلاف بين الشعوب سنة كونية وطبيعة اقتضتها الإرادة الإلهية فلا مجال للإقصاء والإلغاء والتصادم مع الآخر.

- قدّم القرآن نظرة جديدة تؤسس لتلاقي المجتمعات وتعارفها وتصالحها، وكانت دعوته استثمار هذا الاختلاف في تحقيق التقارب والتعايش السلمي المشترك.

-يقيم الإسلام قواعد إصلاحه الاجتماعي الإنساني على تثبيت دعائم الوحدة الإنسانية وحدة الأمة، وحدة الجنس البشري، وحدة المصير الواحد.

---

[71] المرجع نفسه. ص211

[72] مسلم 65/7برقم6027

-إن التعارف والتعاون الذي جعله الإسلام غاية نبيلة من اختلاف البشر، هو أحد مؤسسات المشترك الإنساني ويتجلى في مظهر اللقيا على مائدة المودة والتراحم لا الحرب والتصادم، التسامح العام، التنادي إلى المشاعر الإنسانية النبيلة والقيم الأخلاقية النبيلة.

-تنتهي خطابات القرآن ومقاصده إلى خدمة الجماعة الإنسانية وتحقيق مصالحها المشتركة.

-الكشف عن مقاصد القرآن خير مدخل للتعريف بالإسلام وإجلاء صورته التي يراد تشويهها.

-من المقاصد القرآنية التي يمكن توظيفها في بناء إنساني مشترك مقصد إعمار الأرض، مقصد العدل، مقصد السلام العالمي، مقصد تحرير إرادة الإنسان.

-الأحكام ومقاصدها التي شرعت لتحقيق هذه المقاصد تتوزع على ناحيتين: ناحية إيمانية باعتبار المسلم مكلفا بامتثال أوامر الله تعالى، وناحية إنسانية باعتباره عضوا في الجماعة الإنسانية.

-تعتبر هذه المقاصد التي أصّل لها القرآن قيما خلقية مطلقة لا تتأثر بجنس ولا لون ولا مذهب ولا انتماء، بل هي حق إيماني مطلق المعنى الوحيد المعتبر فيه هو المعنى الإنساني. **وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**

قائمة المراجع:

1-**إبراهيم بن إسحاق الشاطبي. (1417). *الموافقات*. القاهرة: دار ابن عفان.**

2-الحسين بن محمد الأصفهاني. (1428). *الذريعة إلى مكارم الشريعة*. القاهرة: دار السلام.

3-راغب السرجاني. (1430). *ماذا قدم المسلمون للعالم*. القاهرة: مؤسسة اقرأ.

4-راغب السرجاني. (1432). *المشترك الإنساني نظرة جديدة للتقارب بين الشعوب*. القاهرة: مؤسسة اقرأ.

5-شوقي أبو خليل. (1423). *الحضارة العربية افسلامية*. بيروت-دمشق: دار الفكر.

6-علال الفاسي. (1993). *مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها*. لبنان: دار الغرب الإسلامي.

7-غوستاف لوبون. (2012). *حضارة العرب*. مصر: مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة القاهرة .

8-محمد أبو زهرة. (1401). *المجتمع الإنساني في ظل الإسلام*. الرياض: الدار السعودية.

9-محمد الطاهر بن عاشور. (1984). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.

10-محمد بن إسماعيل البخاري. (1407). *صحيح البخاري*. دار ابن كثير، اليمامة: بيروت.

11–محمد رشيد رضا. (1990). *تفسير المنار*. مصر: الهيئة المصرية للكتاب.

12–محمد سعيد رمضان البوطي. (1420). *من روائع القرآن*. بيروت: موسسة الرسالة .

13–محمود شلتوت. (1421). *الإسلام عقيدة وشريعة*. القاهرة: دار الشروق.

14–مسلم بن الحجاج. (1334). *صحيح مسلم*. بيروت: دار الجيل..

15–يوسف القرضاوي. (1421). *كيف نتعامل مع القرآن العظيم*. القاهرة: دار الشروق.

الملخص:

يحاول هذا البحث أن يبين أثر ملاحظة المقاصد التي حواها القرآن وكيفية استثمارها في بناء المشترك الإنساني باعتباره رافدا أصيلا من روافد الحضارة الإسلامية التي أدخلت العالم المتخبط في وحشية شاملة إلى عالم الإنسانية. وقد تضمن القرآن عددا من المقاصد التي تعزز بناء القيم الإنسانية التي يمكن أن تتلاقى على مائدتها جميع الشعوب والأمم. ويأتي في مقدمة المقاصد القرآنية المعززة للقيم الإنسانية والتي تؤسس لنظرية العيش المشترك، مقصد التكريم الإنساني، ومقصد السلم والتسامح العالمي، ومقصد التعارف والتعاون الإنساني...وقد خلص البحث في جملة من نتائجه أن القرآن الكريم بحق هو كتاب إنسانية مقصده الأساس التأصيل للمقاصد الإنسانية المشتركة.

Title: The cultural dimension of the Quranic purposes in building contemporary human society and rooting in the theory of coexistence. Presentation and analysis.

summary:

This research attempts to demonstrate the impact of the observation of the purposes which the Quran 'an included and how it invested in the construction of the human participant as an inherent tributary of Islamic civilization that introduced the wild floundering world into the world of humanity. The Quran 'an contains several purposes that promote the building of human values on which all peoples and nations can converge. At the forefront of the Quranic purposes that promote human values and that establish the theory of common living, is the purpose of human honour, the purpose of peace and global tolerance, and the purpose of human knowledge and cooperation... The research concluded, inter alia, that the Holy Quran is truly a humanitarian book whose purpose is the basis for rooting in common humanitarian purposes.